الفصل الأول

المعقول واللامعقول في المعتقدات البشرية[1]

يرى «ليفي بريل» *Lévy Bruhl* أن التفكير البدائي هو تفكير ما قبل المنطقية، أي أن التفكير البدائي مبني على رابط مختلف بين الملاحظ وبين الشيء الذي يكون موجوداً عند الناس المتمدنين. فالمتوحش لا يتصور العالم بالطريقة غير العاطفية التي نعتقدها نحن، ولكنه ينظر إلى العالم من خلال منظار تغيّمه العاطفة وتشترك فيه الأشجار والنباتات والحيوانات كما يشترك فيه الإنسان. إلا أن هذه الأفكار البدائية لم تحظ باتفاق عام، ولكنها كانت حافزاً كبيراً لدراسة تفكير وتصرفات المجتمع البدائي، لاسيما بالنسبة للنظامين الطوطمي والقرابي. ولكن «ليفي بريل» قد تناسى أو أهمل وجود أفكار بدائية تشبه أفكار الرجل البدائي. فالبولونيزي مثلاً، عندما يصنع قارباً فإنه يختار الخشب الخفيف لعمل العمود الخارج من القارب ويسطّح الجهة القريبة للعمود من الهيكل حتى يقاوم رد فعل العمود الخارج تماماً كما يفعل أي أوروبي في محاولة بناء القارب. وهذا تصوير صريح لمعقولية البدائي في المسائل التقنية، ولو أنهم يستعملون من الطرق ما يختلف عن الطرق التي نستعملها. وبمواجهة القابلية المحددة للأفكار وعدم وجود مفكرين

---

[1] اعتمدنا في كتابة هذا الفصل على كتاب:

- Raymond Firth: Human Types, an Introduction to Social Anthroplogy.

وقد ترجمه إلى العربية: د. صبحي قنوص، جامعة بنغازي - ليبيا، عام 1989.

يدخلون في معاني الكلمات، نرى أن أنواع الحياة الفكرية البدائية تختلف عن حياتنا، ولكنهم يستخدمون غيرهم وتجاربهم لخدمة أهدافهم.

إنه لمن الضروري التأكيد على هذه النقطة من أجل الخوض في غمار الحديث عن الديانات والسحر والشعوذة لدى البدائيين، حتى لا يظن القارئ أن التفكير البدائي هو تفكير عاطفي فقط، أو أن تصرفاتهم وأعمالهم خاضعة لعوامل غير مقبولة. والواقع أن البدائي يستطيع أن ينتقد أفكاراً توجه إليه ويراها غير جيدة التكوين. ففي ملاحظات بعض الإرساليات حول عودة الميت إلى الحياة مرة ثانية، سئل البدائيون: كم رجلاً نهض من الموت؟ وهل رأيتموهم؟ وعند الإجابة بالنفي أخذوا يضحكون ويقولون: «ها.. لقد سمعتم عنهم إذن». وحين لا تتفق الأفكار مع معتقداتهم وعاداتهم فإنهم يسخرون منها.

ومن المعروف جيداً أن الإيمان بالقوة الخارقة للطبيعة يلعب دوراً مهماً في حياة البدائيين. فلو نتتبع البولونيزي في بناء قاربه، فإننا نرى قيامه جنباً إلى جنب بالأعمال التقنية، إضافة إلى بعض الأعمال الأخرى التي لا يمليها الأسلوب التقني، معتقداً بأن الأداة المحركة لقاربه تسيطر عليها قوة روحية. كما يعتقد أيضاً بأن هذه الروح تقتل ما ينخر الخشب. وهو يكرّس القارب للآلهة والأجداد، وفي اعتقاده بأنهم سيزوّدون القارب بسرعة وكفاءة وبحرّيّة، وكذلك لجلب الرياح وتهدئة الأمواج ومساعدته في صيد السمك. وعندما نسمي هذه الأشياء والمعتقدات بأنها أشياء ما فوق الطبيعة، فإنها ليست من الضروري أن تكون فوق الطبيعة، ولكن من خلال تصنيفها فإنها لا تدخل في مجال الطبيعة التي نعرفها. أما من الناحية العلمية والتطبيقية، فإنها تكون متممة للجهود البشرية. ولقد ذكرنا أن المعتقدات بقوى ما فوق الطبيعة، كقوة أرواح الأجداد أو الخرافات، تستطيع العمل كقوة ذات سيطرة أو ضابط اجتماعي.

ومن المهم أن نعرف أنه بالرغم من أن أسس المعتقدات قد تكون وهماً، إلا أن المعتقد نفسه له تأثير وقوة فعالة. وعليه فإننا نصنف هذه المعتقدات باعتبارها غير معقولة، وليست على أساس أنها غير منطقية، من خلال انحدارها من أفكار خاصة، ولكن على أساس أنها غير ذات قيمة بالنسبة لتحليلنا العلمي.

إذا افترضنا أن هذه المعتقدات مبنية على أساس من الغموض أو أساس ديني، وهو تفسير بسيط جداً، وأن اختلاط هذه المعتقدات بالحياة الاقتصادية وبرغبات الإنسان وبالفترات الحرجة في حياة الإنسان، وأن ظهورها لا يمكن أن يكون عرضاً، فلهذا يمكن القول إن وجودها ناتج عن رغبات بشرية أساسية. ولكن القول إنها أساساً تتبع ما يريد الساحر أو الكاهن تصويره لهم هو قول بسيط. ونظرية السحر أو الدين تنسف معتقدات الساحر نفسه، على الرغم من توافقه العميق مع التقاليد، وكذلك تنسف الضغط الذي يمارسه المجتمع عليه لدفعه إلى ممارسة سلطاته السحرية.

فالعلم والسحر عادة ما يمثلان قطبي المعقول واللامعقول في الأعمال البشرية، ولكن ليس من السهولة بمكان وضع حدّ ثابت بين الأعمال الرشيدة وغير الرشيدة بالنسبة للأعمال البشرية. فإذا أخذنا مثلاً مسألة علاقة المعلومات التقنية بالسحر فسنجد عدداً من المواقف والأعمال المتدرجة التي يظهر فيها عناصر من الجانبين. فقد توحي بعض أنواع السحر العلاجي باستعمال عناصر ذات تأثير أو تمارس تجارب معقولة، وكذلك لا يخلو التطبيق العلمي من بعض التحيزات غير المنطقية لبضع الأفكار النظرية، أو تجاهل بعض المستمسكات التي تظهر عكس الافتراض الأصلي.

لنأخذ رغبات الإنسان بالنسبة للعالم الخارجي على أساس القبول بالسحر، على الرغم من كونه يعتمد على معتقدات غير مقبولة بالنسبة لنا، فنجده يستطيع تصنيف الرغبات إلى ثلاثة أنواع هي: (1) إنتاجي، (2) وقائي، (3) تهديمي، حيث تمارس هذه الأنواع في مختلف الاتجاهات والطبقات الاجتماعية البدائية من قبل أشخاص منفردين أو جماعات متبنية لهذا الأسلوب الحياتي. إلا أنه ليس من الضروري أن يكون هذا التصنيف معتمداً على التمييز البدائي بين الأنواع، فمثلاً يمكن أن يعطى السحر الإنتاجي اسماً واحداً، بينما تختلف أسماء متعددة من أنواع السحر الأخرى. يُظهر تحليل العمل السحري وجود خواص مميزة. فهناك هدف عملي يراد تحقيقه، وهناك تطبيق بشري لهذا العمل يقوم به شخص يجب أن يكون في حالة مناسبة لممارسة العمل السحري، كأنْ يكون ممتنعاً عن الاتصال الجنسي، أو

مضرباً عن أنواع خاصة من الطعام، أو أن يكون منعزلاً، أو يلبس رداءً خاصاً. ومن خلال ممارسة السحر نفسه لا بد من توافر ثلاثة عوامل: الأشياء المستعملة، والأشياء التي تُمارس، والأشياء التي تقال. فالعامل الأول ممثل في الأدوات والأدوية، والعامل الثاني ممثل في الطريقة التي ينتهجها الساحر، والعامل الثالث ممثل في السحر الذي ينطق به الجو السحري.

لنأخذ كل واحدة من هذه العوامل على حدة وندرسه. فالأدوات المستعملة هي أصلاً أشياء تقنية. وصانع القارب يقطع الخشب بحرص ويتفوه بكلمات سحرية لقتل الحشرات التي تنخر الخشب. إلا أنه وفي بعض الأحيان لا تكون الأدوات المستعملة ذات ميزة تقنية، كالبلورة التي يستعملها معالج الأمراض الأوسترالي، أو العظم المدبب الذي يكثر استعماله من قبل المتعاملين مع الأموات في أواسط أستراليا. وفي إفريقيا يستفيدون بكثرة من الأدوية ومن الأدوات التي يقطعونها من الأشجار والنباتات. وتعد كمية الأدوية وأنواعها عند قبائل الزاندي بالألوف، ولكنهم لا يعرفون استعمال وفوائد غير القليل منها. فأوراق شجرة البلْب تُؤكل طازجة أو تُغلى مع الملح والسمسم، ويُصنع من النباتات الطفيلية السحر والتعاويذ، ومن الزواحف تُعمل أدوية لحفظ المزارع الذي يصاب بأذى في أحد أطراف جسمه، وفي بعض قبائل البانتو تعتبر كلمة الدواء مرادفة لكلمة شجرة.

من الواضح جداً أن جزءاً من هذه الأدوية له تأثير فيزيولوجي، ولكن الغالبية منها تكون خاملة وعديمة المفعول. وتحتوي الأدوية المستعملة في السحر على مواد غريبة، كدماغ التمساح، أو المواد التي تفرزها المرأة بعد ولادة الطفل مباشرة. ولا بد من تهيئة الظروف الخاصة ومراعاتها عند تجميع هذه الأشياء تماماً كما في قصة «مكبث» *Macbeth*. وغالباً ما تحفظ هذه الأدوية في أوعية لها خصائص سحرية، أو على الأقل يدل مظهرها على محتواها. ففي قبائل «البمبا» تحفظ الأدوية في قرون الحيوانات، أو في حقائب جلدية صغيرة وفيها تحفظ أسحار الحظ الطيب، كما تستعمل في الوقاية من المرض. وفي قرون الحيوانات تحفظ أسحار الصيد، ولكن في قرون ثور الغابة تحفظ أسحار شريرة. وهذا الحيوان له سمعة سيئة جداً عند قبائل «البمبا». فهم يعتقدون بأنه روح شريرة لدرجة أنه منبوذ ومحرَّم كغذاء

للزعماء والنساء الحوامل. أما بالنسبة إلى الأهالي الإفريقيين فإنهم يعتقدون بأن قوة السحر تكمن في الدواء، وهذا يناقض معتقد سحر أهالي المحيط الذين يعتقدون أن القوة تكمن في الجو السحري.

توجد أنواع متعددة لطريقة ممارسة الطقوس، وهو في الأساس عمل وظيفته توصيل السحر عن قصد الاتصال به. وفي بعض الأحيان فإن طريقة ممارسة السحر والعمل التقني يكونان شيئاً واحداً. فالصياد التيكوبي يزاول السحر، بينما يقوم في الوقت نفسه بملاحظة الخيط أثناء صيد السمكة. وهو لا يستعمل دواءً ولا أي عمل ذا طابع شعوذي. ولكن وفي بعض الأحيان يقوم الشخص بأعمال سحرية لا قيمة لها، فمثلاً يقوم عامل القوارب في قبائل «التروبرياند» بمسح القارب بحزمة من الحشيش الخفيف بينما يقوم بعمل سحري لإعطاء قاربه الخفة والسرعة، ويكون العامل الفعلي في السحر عاملاً مهماً. ويعتقد «برونيسلو مالينوفسكي» ***Bronisław Malinowski*** أنه العامل الأساسي والمصدر الرئيسي في منبع قوة السحر، ولا توجد هناك أعمال سحرية كثيرة حينما لا يقوم الساحر بمزاولة السحر، ولكن يثار التساؤل حينما لا يستطيع الساحر شرح وتفسير كلامه بأفكار يتقبلها الأفراد.

وفي كثير من المجتمعات كالماوري والتروبرياند والدوبوان فإنهم يعتقدون بأن الكلمات السحرية ثابتة، وأن أي خطأ في ترديدها يفقد السحر قيمته. وفي بعض المجتمعات الأخرى فإن نوع الكلام وليس نصه هو المهم ويكون عبارة عن محاورة مع الدواء لإعطاء مفعوله، ويبدل الساحر عباراته كما يشاء. وحينما يكون الكلام ثابتاً - السحر الأصلي - فهنا تبرز عدة أشياء ثابتة: فالكلمات تكون منمقة وموزونة وتوحي في لفظها بالغاية المطلوبة، وكذلك تعطى مرادفات لما يطلب. فعندما يحضر صبغ التومريك الأحمر في تيكوبيا فإن العبارات التي تقال ترمز إلى دم السمكة الأحمر وإلى رحيق الأزهار الحمراء وإلى الأوراق الحمراء للنباتات، حيث يكثر استعمال التعابير المجازية باستعمال الخرافات كمصدر، وهنا فإن بعض الكلمات عادة ما تكون غير مفهومة ولا دليل لها إلا كونها كلمات سحرية. كما يؤكد «مالينوفسكي» أن هذه الكلمات لا تفي بأي استدلال لمعلومات معينة، ولكن تستعمل كطريقة للعمل أو التعبير عن إرادة بشرية. فالمعادلة، إذن، هي

ترجمة لرغبة الإنسان في كلمات، وممارسة الطقوس والشعوذة السحرية هما قوة اليد وصوت للقوى الطبيعية.

سؤال واضح قد يخطر على بال أي إنسان يقرأ أو يشاهد السحر هو: لماذا بقي السحر موجوداً ما دامت المبادئ التي يقوم عليها السحر غير صحيحة؟ ولماذا لم يفهم البدائي أن سحره غير ذي فائدة؟ وقد عزا «تايلور» فيما مضى استمرار وبقاء السحر إلى أربعة أسباب:

أولاً، إن قسماً من النتائج المرجوة من السحر تظهر حقيقة إما لسبب آخر غير السحر، أو بسبب ما يفعله الساحر، أو بفعل الأدوية المستعملة. وثانياً، استعمال الخديعة، حيث يستطيع الساحر إيهام الناس بصدق فعله، ولو أن الساحر في أغلب الأحيان يؤمن بسحره بقوة مثلما يؤمن الآخرون. وثالثاً، إن الحالات التي ينجح فيها السحر يُحسب لها حساب أكثر من الحالات الفاشلة، وحتى في حياتنا العادية فإننا كثيراً ما نتجاهل الأشياء التي تظهر عكس نظرياتنا. ورابعاً، للاعتقاد بوجود أشياء مبطلة لمفعول السحر. فإذا لم ينجح الساحر في طريقة عمل السحر، فإن الناس يظنون بأن الظروف الملائمة للسحر لم تتوافر، أو أن أحداً تآمر سحرياً على إبطال مفعول السحر.

ومثال آخر على أن السحر يصنع لنفسه دفاعاً ضد الهجمات التي تشن عليه، وهذا الدفاع ينبثق من المبادئ الأولية للسحر. وهذا واضح في المثال التالي الذي حدث سنة 1931م حينما أرادت جماعة من السحرة إعادة كلب إلى الحياة وفشلوا في ذلك واعتبروا جماعة من الفساق بالنسبة للناس الذين شاهدوهم، ولكنهم ما زالوا يعتقدون بأنهم ذوو قدرة على إعادة الكلب إلى الحياة فيما لو توافرت لهم الظروف الملائمة، وكذلك فإن الكلب لم يقتل بصورة صحيحة، حيث إنهم لم يستطيعوا الاشتغال على ما تبقّى منه بعد قتله. ولكن الأهالي البدائيين الذين شاهدوا ذلك كانوا موقنين بأن الكلب قد بدأ العودة إلى الحياة، وأن التجربة ناجحة لولا تدخل شرطي من القرى المجاورة مما أدّى إلى فشل السحر وبقاء الكلب ميتاً. لذلك نرى أن الإيمان بالسحر ومزاولته ليس فقط من أسباب الغباء أو الجهل، ولكن يجب أن نفسّره من خلال تقبّل بعض الافتراضات حول طبيعة الأشياء ومناقشتها بطريقة

منطقية. إن قوة السحر تكمن في قوة الإيمان في الافتراضات، ولكي ندرك لماذا يبقى البدائيون يؤمنون بالسحر، علينا دراسة دور السحر في حياتهم الاجتماعية.

إن ممارسة السحر لا تتم من أجل السحر فقط، ولكن هناك أهدافاً متوخاة من هذه الممارسة لها علاقة بالأعمال البشرية الراشدة. وإذا حللنا علاقة السحر الإنتاجي بالأعمال التي تسير معها يداً بيد نرى أن الأعمال السحرية لها دور بارز في هذه الأعمال. ولقد حلل «مالينوفسكي» هذه العلاقة جيداً. إن السحر الإنتاجي يرمي نوعاً من القوة والجدية لإنجاز العمل، وكذلك يوحي بعقاب إهمال ذلك العمل، وعلاوة على ذلك يستطيع السحر تمهيد الطريق باعتباره قوة لإنجاز العمل، وتوافقاً مع خطة السحر فإن مراحل متعددة من العمل يجب أن تزاول في فترات معينة حتى يستطيع أن يأخذ مفعوله جيداً.

للسحر إذن، قوة تنظيمية مفيدة. ويؤكد «مالينوفسكي» أنه من الوظائف العامة للسحر هو زرع الإيمان في قلوب مستعمليه. وهذا الإيمان بالأشياء غير المعروفة وغير المتوقعة كالمطر والسيول والزراعة والحشرات، والإيمان بالهواء والعواطف واللآلئ في البحار والإيمان برغبات وشعور التاجر الشريك والإيمان بخفقات قلب الحبيب. ويساعد السحر الشخص على رفع وتقوية معنوياته وسيطرته على الطبيعة، ويتيح للإنسان السير قدماً في تحقيق أهدافه معتمداً أساساً على أنه من خلال السحر يستطيع أن ينال النجاح المطلوب. ولذا ليس من السهل لدى البدائيين ترك السحر بمجرد أنه فشل مرة واحدة. وللسحر ارتباط عميق جداً مع الينابيع الأساسية للعواطف البشرية. يجب اعتبار هذه النظرية النفسية للسحر على أساس أنها صحيحة في أكثر الحالات، ولو أنه يجوز أن يكون مستحيلاً إثبات نتائجها. كما توجد حالات لا يستخدم فيها السحر على الرغم من عدم معرفة الإنسان لما قد يأتي به من نتائج. فالتيكوبيون لا يستعملون سحراً للحب، وسكان جزر الأدميرالية لا يستعملون سحراً للإبحار ولكنهم يعتمدون على ذكائهم وقوتهم للتغلب على العواطف، ولكن التروبرياند يستعملون كلا النوعين من السحر بدرجة عالية.

فالسحر إذن هو تجاوب الناس بشكل ما مع بعض المواقف من اللامعلوم، وشكل آخر من التجارب هو الاعتماد على أنه مفيد. وكذلك الاعتماد على نظرية

الاحتمالات التي هي شكل آخر من العلم، أو مجرد كفر بالقيم برفض العلم والآلة. والسبب في توزيع السحر والأشكال الأخرى في التجاوب مع الظروف في مختلف المجتمعات، هو عدم استطاعة علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، أو حتى علم النفس تفسيره بصورة واضحة إلى حد الآن. ومن الأجوبة الشائعة هو أن هذا التوزيع يعتمد سبباً تاريخياً، ولكن هذا لا يجيب عن السؤال: لماذا اتخذ هذا التوزيع هذا الشكل التاريخي؟

يتخذ السحر الوقائي أيضاً أشكالاً من الأعمال الوظيفية المفيدة. فإذا سلمنا بالاعتقاد بفائدته، فإنه يخدم كمدافع عن حقوق الأفراد، وعلى الرغم من عدم تأثيره على المعتدين، إلا أنه يمنح الأشخاص المعتدى عليهم نوعاً من العزاء والراحة بأن حقوقهم لن تهدر، وكذلك يحد من الرغبة في الانتقام.

كما يشير «إيفانز بريتشارد» إلى أن الأداة السحرية للعقاب عند قبائل الزاندي تحد من الرغبة في الانتقام وتنزل الموت على المعتدين، وبذا ساعد على تنفيس رغبات الناس.

نستطيع الآن الرجوع إلى تحليل السحر التهديمي. لنأخذ أولاً أشكال هذا السحر في مختلف المجتمعات البدائية. ففي قبائل الماوري يتم هذا السحر بتدمير جزء من الضحية، كتدمير ملابسه أو شعره أو أظافره بواسطة تقوّلات سحرية. ولكن عند الزاندي في وسط إفريقيا فإن السحر هو إشعاع من مادة سحرية وهمية في جسم مجموعة من الأشخاص يعتقدون بأن هذا الإشعاع ممكن رؤيته بنظارات خاصة، ويمكن ملاحظة آثاره عند تشريح الشخص بعد الوفاة، أما بالنسبة للزاندي فإن السحر شيء مختلف. ومن خلال مقارنة السحر في هذين المجتمعين نرى أنه لا وجود لاستعمال الأدوية عند الماوري، ويتعلق سحرهم التهديمي بتدمير شيء خاص بالضحية.

وعلى الرغم من أن السحر الإنتاجي في المجتمعين متشابه، إلا أن السحر التهديمي عند قبائل الزاندي يضاف إليه أنواع أخرى من الطقوس، جنباً إلى جنب مع الشعوذة التي تمارس وتأخذ شكلاً خاصاً هناك. كما توجد الأدعية التي لا تحتاج إلى حاجات خاصة ولا يستطيع الشخص القيام بها. وهذا الازدواج في السحر

التهديمي موجود في إفريقيا وأستراليا وجزء من ميلانيزيا، ولكنه غير موجود في بولونيزيا. يوجد نوعان من السحر التهديمي يمارسان عند سكان نهر الدالي. فالشعوذة التي تقام من أجل جلب العواطف والتدمير المقصود به الأعداء، وكذلك دفن أو حرق جزء من الأشياء الخاصة بالعدو لغرض تحطيمه. كما أن هناك رعباً شديداً وخوفاً من سرقة شحم الكلية لأحد الأشخاص مما يؤدي إلى وفاة ذلك الشخص. وهذا يؤكد أن السحر الزاندي لا يمكن مشاهدته، وكذلك ينكر الشخص المتَّهم ممارسته، ولكن ممارسته تشخص بنتائجه المفترضة. وعلى العكس من ممارسي *Mango* فإن ممارسي سرقة شحم الكلية لا يتمتعون بميزات جسدية خاصة. وفي بعض الحالات النادرة قامت محاولات لسرقة شحم الكلية بالطريقة المعروفة إلا أنها باءت بالفشل. وفي بعض أجزاء من ميلانيزيا يمارس نوع من السحر التهديمي الذي يبدو من المستحيل القيام ببعض خصائصه، ولكن هناك بعض من الناس يؤمنون بممارسته كسحر *Vele* في كواد لكنال، وسحر *Vada* في الجنوب الشرقي لغينيا الجديدة. ففي سحر الفادا يعتقد الناس بأن السحر يشق بطن الشخص الضحية ويُخرج أحشاءه، ثم يحنطه بطريقة سحرية بحيث لا يترك أثراً للجرح ويبقيه لفترة قصيرة حياً، ولكنه لا يكون قادراً على إعطاء اسم قاتله، ثم يموت بعد ذلك. والفرق الرئيسي بين الفادا وبين سرقة شحم الكلية أن هناك أناساً يدعون بممارستهم لسحر الفادا.

توجد عدة عوامل مشتركة في جميع أنواع السحر التهديمي، ولو أن التركيز على أحد هذه العوامل يختلف من مجتمع إلى آخر. وهناك تمييز واضح بين نوع وآخر، حيث إن البعض منها يعتمد في ممارسته على أشياء خيالية بينما يعتمد القسم الآخر على نوع من الشعوذة المرئية.

ومن المتعارف عليه أن النوع الذي يعتمد على أشياء خيالية يسمى ***witchcraft***، والنوع الذي يعتمد على شعوذة مرئية يسمى ***sorcery***. ولو أن هذه التعابير لا تستعمل بتجانس ينطبق كثيراً على ما ورد في السحر ذات العلاقة بالديانة. فنرى أن الدين مبني على افتراضات فوق مجال المعقول، ويستعمل الدين شعائر وأشياء فعلية شريطة أن تكون حالة القائم بهذه الأفعال مناسبة لإنجاح هدف الشعائر.

توجد عدة أوجه للتمييز بين السحر والدين. وكمثال نستطيع أن نذكر الخصائص التي تبناها «فريزر» *J. Frazer* بقوله: إن السحر هو تأكيد لسيطرة الإنسان على الطبيعة بواسطة قوة القول السحري الآمرة، والدين هو اعتماده على القوى الروحية التي يتقبلها المصلّي. وقد وضع «مالينوفسكي» *Malinowski* بعض الأسس العملية، مفادها أن السحر هو مجرد إيمان بتأثير وفعالية قوة الإنسان من خلال ممارسته للسحر والشعوذة وأساليبها محددة ونتائجها موجهة إلى فائدة عملية. أما الدين فإنه جملة اعتقادات وطقوس معقدة ومتحدة ليس بسبب نوعية عملها، ولكن بنوع العمل الذي تستطيع إنجازه، والراحة النفسية التي تتم من خلال تنفيذ هذه المراسم.

أما «بيدينغتون» *R. Piddington* فقد وضع تصنيفاً مختلفاً، وبالنسبة له فإن الدين هو أيديولوجية القوى فوق الطبيعية، والسحر هو تطبيق هذه المعتقدات على أشياء عملية فعلية، وفي الفعاليات التي تعتبر دينية يوجد هناك عامل سحري مطبق. وقد أشار الكتّاب الآخرون إلى صعوبة رسم خط يميز الدين عن السحر ويفضلون الحديث عن الاتجاهات السحر - دينية. وترتبط بهذه الاتجاهات نقطتان أخريان: الأولى، أن ممارسة السحر تتم بواسطة شخص واحد، وهذا الشخص يعكس مشاعر أقرانه وانفعالاتهم ويثير عدم التجانس أكثر مما يستطيع حل المشاكل. بينما الطقوس الدينية هي بالأساس اجتماعية، كالمشاركة في الطقوس الكنسية التي تهدف إلى انسجام الأفراد في محيطهم الاجتماعي وتؤدي بهم إلى أن يجدوا السلام مع أنفسهم والمحبة مع الآخرين. ومن هنا يأتي تصنيف السحر كعمل رديء وغير مرغوب من الناحية الاجتماعية، وتحبيذ الديانة كعمل ذي قيمة اجتماعية. إننا نتحدث بطبيعة الحال عن السحر الأسود ولا نتحدث مطلقاً عن الدين الأسود.

إن اعتماد أي صفة للتمييز بين الدين والسحر هو عمل بسيط، ولكن حتى التحدث عنهما بخصوص جميع العوامل فإن التمييز يصبح حينئذٍ غير واضح. ويوضح الجدول الآتي بأن بعض الأعمال التي تعتبر أعمالاً سحرية موجودة في طقوس دينية معتمدة والعكس بالعكس.

جدول التصنيفات المتقابلة بين السحر والدين:

I العناصر التي تجعل من المواقف وبشكل عام سحرية	تأكيد السيطرة البشرية الفعالة على قوى ما فوق الطبيعة الخارقة. تسخير السحر لتحقيق الطاعة والانقياد. السُّنن التي تستخدم مواد سحرية التي تتميز بقوتها الذاتية. الاعتقاد بقوى خارقة مثل المانا، وتدبير المصالح الخاصة بالأفراد.	العناصر السحرية الرئيسية والتي تعتبر عامة أيضاً بالنسبة للدين القوة الملزمة للمفردات المحكية. أفضلية بعض المواد والرموز مثل الصليب والصور والأصنام. الانتفاع بها في سبيل غايات قطاعات أو أفراد من الناس.
II العناصر التي تجعل من المواقف وبشكل عام دينية	الاعتماد على مساعدة الأفراد الآخرين. الهدف من الصلاة هو طلب العون تستخدم السنن رموزاً خاصة بالعطاء والتضحيات. الاعتقاد بالمخلوقات الروحية. مباركة الحاجات الفنية والممارسات الاقتصادية وما يتصل بها.	العناصر الدينية الأولية يتوافق وجودها في السحر. السيطرة من خلال جهات روحية. الرغبات المادية للجماعة. الصلوات الخاصة بالمطر. مشاركة الجماعة كما هو الحال في الكنيسة.

تستخدم الصلاة عند المسيحيين في الكنيسة لتأمين فائدة عملية آنية وقبل سنوات قليلة بارك أحد القساوسة في الريف الشِبَاك المستعملة للصيد قبل بدايته، حيث ساعد القسيس نفسه على مدّ الشباك ولبى ثلاثمئة مدعو دعوة للعشاء التي نظمها أصحاب الأسطول. وفي عام 1935م بارك أحد الكاردينالية النمساويين جميع السيارات المجتمعة في ميدان القسيس كرستوسين، وقد أقام الحفلة وزير الاقتصاد والتجارة المحلي. وهذا يشبه الطقوس التي يقيمها البدائيون لمباركة عناصر الإنتاج، والتي نصفها نحن على أساس أنها أعمال سحرية. وهذه الصلوات تطالب بالمصالح الشخصية علاوة على مصالح قطاعية. فصلاة الاستسقاء التي تقام في الكنائس لا تطلب الأمطار لبعض أفراد المجتمع، بل لكله بجميع قطاعاته.

وعلى نطاق أوسع فإن الرغبات القطاعية أظهرت اتحاداً ذا طابع وطني للأقسام المختلفة من الكنيسة أثناء الحرب. ومن هنا نرى أن الكنيسة أو الدين بالأحرى يكون مرتبطاً بمصالح الأفراد والجماعات وكذلك بالاقتصاد كما يرتبط بالسحر. إن الموقف الأساسي في الصلاة هو الخشوع، ولكن أكثر أشكال الصلاة من خلال تعابيرها نرى أنها مجرد طلبات للعون والاستغاثة، والاعتقاد بأن الاستمرار في مواصلة الصلاة سوف يثمر إجابة من الله. إن فكرة إجابة الله للصلوات تعطي إيحاءً بقوة الكلمات لجلب نتائج نتوخاها.

نرى في المجتمع البدائي أن بعض الأعمال التي تعتبر سحرية تتضمن جوانب تعتبر دينية. ففي تيكوبيا مثلاً فإن الرجل الذي يصيد بالخيط والصنارة يلقي بكلمات يأمر بها السمكة أن تأتي وتمسك بالخطاف، وهو يخاطب السمكة وحدها ولا يجلب أي روح سحرية في حديثه، ولكنه لا يؤمن بأن الكلمات وحدها كافية لجلب السمكة إليه. فنجده يتكلم مع السمكة كما يتحدث مع أي إنسان ويغريها بوعود مغرية ومجزية. وهو يعتقد أن السمك يسمع كلامه ويقدر وعوده، ولو أنه غير متأكد من ذلك لكون السمك يعيش في أعماق البحار، ويستنجد بمخلوقات روحانية وبأرواح أجداده وحماته لمساعدته على جلب السمك.

إن اختلاط الأمر والاعتقاد بالقوة السحرية للكلمات وكذلك الاعتقاد بأرواح مساعديه متصلة فيما بينها، حيث إن فصل السحر عن الدين في هذه الحالة يؤدي إلى تمزيق العبارات جملة جملة، أو حتى كلمة كلمة. كما يتم الاستنجاد بالأرواح أيضاً في احتفالات الإخصاب وفي الفترات الحرجة من الحياة كالتنشئة والموت والمرض، وهذه الحالات يمكن اعتبارها حالات دينية في التصنيف الاعتيادي.

لو رجعنا إلى الجدول السابق لرأينا أننا لا نتعامل مع المجال الديني والسحري كل على حدة، ولكن مع عدة عوامل مرتبطة فيما بينها، وإلى حد الآن فإن أي تمييز بين الأعمال الدينية والسحرية يتم على أسس عامة كأن يكون العلم سحرياً من جهة من الميزان، ودينياً من جهة أخرى. وفيما بين جهتي الميزان تختلط العوامل فيما بينها بحيث يصعب تمييزها فتسمى سحرية ودينية، أو دينية - سحرية. وفي المجال العملي نرى عدة أمثلة موجودة من هذا النوع المختلط.

إن مناقشة مثل هذا التصنيف قد تعقّد بصورة أكثر، وذلك على اعتبار أن الاعتقاد بالمخلوقات الروحية أكثر تعقيداً من الاعتقاد بقوة الإنسان والقوى فوق الطبيعية، وإن الاعتقاد في المخلوقات الروحية أعلى من التطور البشري وأحدث نشوءاً. ومن خلال وجهة النظر هذه نستطيع حل الإشكال بالقول باختلاط العوامل كحالة مؤقتة. وبالنظر إلى جهلنا بالتطور التاريخي للتكوينات البدائية يعتبر حلنا تسلطاً على المشكلة وليس حلاً لها.

بإمكاننا الآن أن نفحص نوعية ووظائف المعتقدات البدائية ذات الجوانب الدينية. ليس من الضروري إثبات أن لكل مجتمع مهما كان بدائياً ديناً كما حاول «تايلور» *E. Tylor* أن يثبت ذلك قبل أكثر من 70 عاماً. وهذا الدين يجوز أن يكون من نوع لا نعرفه، ومع هذا فإنه يملأ حيزاً كبيراً في حياة المجتمع. كما يجوز أن يشمل الدين أعمالاً مرعبة كصيد الرؤوس وأكل لحم البشر والتضحية بالإنسان وتشويه الأجساد. ويجوز أيضاً أن يشتمل الدين على معتقدات سخيفة كقوة الأحجار والأشجار في الحركة والكلام ومحرمات على عادات طبيعية بسيطة وأنواع التلوث التي يعاني منها الجسم البشري. ومع هذا يجوز أن يشتمل على اعتقادات بقوة خيالية، وكذلك بالجمال والإخصاب وتمثيل بعض الحالات الطبيعية بأجساد بشرية وخرافات تدور حول هذا التمثيل. وعلى الرغم من غرابة هذه المعتقدات فإنه يجوز أن نراها متصلة سوية بحياة الفرد الدينية، انطلاقاً من تدريبنا الكنسي بأن الدين هو شعور داخلي غريب في تجربة فردية ذات عاطفة عالية، وبذلك يكون من الصعب علينا أن نعطف ونتفهم الديانة البدائية. وفي بعض الديانات كما في شمال أمريكا يشعر البدائي بتجربة شخصية غريبة كرؤية شيء ما مع حالة عاطفية عالية، ولكن هذه الحالات لا توجد لدى جميع البدائيين. وقد يتمسك البدائي بالإيمان بصورة ثابتة ويؤمن به كشيء مفروض وغير قابل للجدل، ويشارك في الاحتفالات الدينية ليس عن شعور داخلي، بل ليثبت تمسكه بالإيمان أو بالمعتقد. يجوز أن يتفق البدائي مع المبشرين بأن الإيمان يجب أن يثبت بالأعمال، وأيضاً فإن التفريق بين الإنسان وبين القوى السحرية غير المرئية ليس خاصة من خواص الدين البدائي. فمظاهر الاحتفالات الدينية يتم أغلبها في اجتماعات عامة. وعليه يعتبر

«دوركهايم» *E. Durkheim* الدين أساساً يعني الله والكنيسة مما يؤكد قيمة اجتماعية موضوعة.

يؤمن الإنسان على ما يبدو في كل المجتمعات بوجود عوامل روحية وقوى روحية تؤثر على فعالياته. وقد أثر هذا في «تايلور» *Tylor* تاثيراً مباشراً، بحيث عرَّف الدين بأنه إيمان بمخلوقات روحية. فعندما نفكر بالدين نفكر بربنا أو بعدّة أرباب، ولكن الديانة البدائية تؤمن وتركز على الاعتقاد بقوى روحية يكون من الصعب تصنيفها على أساس الربوبية. ففي أستراليا يتركز الاعتقاد الديني على أرواح مخلوقة سلفاً، والتي من خلال أعمال بطولية من أفراد القبيلة تتقمص في الحيوانات والنباتات والأشياء الطبيعية الأخرى. ويجوز أن ترتبط هذه الأعمال بنواح بشرية كمدربي الثيران الذين يعاملون معاملة مقدسة ويصبحون بؤرة احتفالات فنية تهتم بالإخصاب.

أما في نهر دالي فإن الأهالي يؤمنون بالأشباح التي تظهر بصورة مخيفة لترعب الناس، وفي أستراليا يعتبر حامل قوس قزح أكثر المخلوقات فوق الطبيعية الذي يُعزى إليه كثير من الأعمال كبطل في مجال الزراعة. وهناك تقارير عن القبائل الشرقية شرحت وجود مخلوق روحي يشبه الإله يسمى بايامي أو دارمولوم، إلا أن دوره في الحياة الدينية غير واضح. ومثل هذا المفهوم لا يوجد في مناطق أخرى من أستراليا تمت دراستها. إن مسحاً عاماً للمخلوقات الروحية قد يبين لنا وجود نوعين رئيسيين: أحدهما ذو أصل بشري، والآخر ليس من أصل بشري ولو أنه يملك خواص بشرية.

إن الإيمان بالمخلوقات الروحية والقوى والمبادئ المشتقة من الإنسان هي أشياء متعاكسة ومناقشتها صعبة جداً، لأن أنواعها غير مألوفة لدينا ولا متشابهة في المجتمعات البدائية. ونحن نميز بصورة عامة بين الجسم والروح ولكن لدينا معتقدات تمثل أوجه حياة الفرد. وإننا نتكلم عن حيوية الشخص وتفكيره بأشياء، قسم منها فيزيولوجي والقسم الآخر نفساني، وبالتالي فإننا نتحدث عن شخصية الإنسان كتعبير نفساني ولو أنها تساوي في الواقع تأثيره الاجتماعي، وقيمته الاجتماعية بين بقية أفراد المجتمع الآخرين، وقسم من هذه الأفكار يجري خلال الأفكار البدائية، ولكن بما أن حديثنا وأفكارنا توضح نفسها بأشكال مختلفة، كما في

التفريق بين ما هو طبيعي وما هو فوق الطبيعة، وما له خاصية نفسية تختلف عن الروحية، ولذلك فنحن إما أن ننظر إلى أفكارنا بأنها أعلى مستوى من الأفكار البدائية، أو نعتبر الأفكار البدائية كأفكار مهووسة حتى بالنسبة للبدائيين أنفسهم ونغالي بأن نجعل تعبيراتهم مثل تعبيراتنا كالروح والشخصية واللاوعي أو نحاول أن نصف معتقداتهم على أساس تعدد الأرواح.

إن ما عمله البدائيون هو أنهم أخذوا أوجه متعددة من التجارب البشرية والنواحي غير المادية من الفعاليات البشرية ومزجوها بطريقة تختلف عن الطرائق الأوروبية، ولذلك عندما نترجمها إلى لغتنا ومفاهيمنا فإننا نكتفي بمعنى تقريبي، وهذا لا يعني أنه ليس بمقدورنا تفهم معتقداتهم.

من المستحيل إذن أن ندوّن جميع أوجه التجارب البشرية والفردية التي يميزها البدائيون، ولكننا نستطيع الرجوع إلى أربع نقاط رئيسية وهي: الأساس اللامادي أو العنصر الحيوي، والثاني هو الحكم كقسم عكسي، والثالث هو الظل كقسم عكسي، والعنصر الذي يتبقى بعد الوفاة وهو الروح أو الشبح، وكثيراً ما يختلط قسم بالقسم الآخر.

فالأساس غير المادي للإنسان، هو نوع من الجزء غير المرئي وغامض كما لو كان كسائل غير مرئي، وعلى جودته يعتمد الجسم حسبما هو معتقد، وإذا منع من الجسم فينتج عندئذٍ المرض، وإذا لم يُستعد أو يسترد فإن الجسم يموت، ويظن أنه غالباً ما يكون عرضة للأعمال السحرية. ولهذا السبب نرى أن الماوري القديم حينما ينهض من الكرسي فإنه يقوم بحركة كأنه يجمع ما تبقى من هذا الأساس اللامادي حتى لا يأخذه الساحرون منطلقاً لأعمالهم. وقد كان يُعتقد عند الماوري بوجود ثلاثة أنواع من هذا الأساس اللامادي (الماوري، الهاو، الأورا) وكل واحد منها ضروري لدوام الصحة، كما أن كل واحد منها يتأثر بطرق مختلفة ولو أن العلاقة بينها غير واضحة لنا. والأشياء الطبيعية أساسها اللامادي أيضاً. ففي «تيكوبيا» حينما توضع ربطة من الخضراوات على قبر أحد الموتى، فإن أرواح الأجداد تأتي وتأخذ الأساس اللامادي للغذاء (الأورا) تاركة الأساس المادي. ويقول البدائيون إننا لا نرى الأرواح تأخذ (الأورا) ولكننا نعرف ذلك لأن النبات يذبل. وفي بعض

المجتمعات الأخرى يعتبر العنصر الحيوي هو المسؤول عن مغامرات الأحلام، وفي البعض الآخر يعتبر الحلم كقسم مختلف وله دور كبير في الحياة البدائية، ليس في بناء نظرية الروح فقط، ولكن في ترشيد وقيادة الأعمال. وتعتبر الأحلام كتنبؤات تعطي إشعاراً عن الحمل وعن نوعية الطفل، وكذلك عن منطقة الصيد الجيدة والنجاح في الأعمال، وعن المرض والموت، ويغير الناس تصرفاتهم وفقاً لهذه الأحلام.

يعتبر بعض الناس الظل كحالة طبيعية بحتة، ويعتقد البعض الآخر بأنه يتعلق بشخصية الإنسان، إما بإعطائه قوة اللمس أو بربطه بالعنصر الحيوي أو حتى بالروح. إن الانعكاس في المرآة أو حتى في حوض ماء يجوز أن يكون تعبيراً لأحد العناصر اللامادية في الشخصية. إن رسم أو تصوير البدائي يثير غضبه لأنه يعتقد أن هذا هو ظهور العنصر اللامادي من شخصية المرسوم. وعلاوة على علاقة الظل بالانعكاس فإن واحداً أو آخر من العناصر الروحية يجوز أن يكمن في أجزاء معينة من الجسم كالمعدة وخلف العين وفي الظهر. وفي الحالة الأخيرة، أي إذا كان العنصر اللامادي في الظهر، فإن ضربة على القفا تعطي نتائج خطيرة.

يوجد في أكثر المجتمعات البشرية اعتقاد بأن حياة الإنسان لا تتوقف بعد موت جسمه، ولكن يستمر حياً بشكل غير مادي. وفي بعض المجتمعات فإن الفكرة عن هذا الاستمرار ومصيره ومستقبل روحه غير واضح. والحياة في العالم الآخر ليست الخلود دائماً. تعتقد جماعة الأيلا مثلاً بأن شبحاً مخيفاً لشخص ميت يمكن غلبته من قبل الطبيب الساحر الذي يستطيع إيجاده في وعاء ويرميه في مكان الأوساخ حتى يحرق مع حرق الحشائش والأوساخ، أو يرميه في النهر حتى يغرق. وفي مجتمعات أخرى يعتقد الأهالي بأن الروح تبقى حية ولا يمكن تدميرها، ويمكن تعريف العالم الآخر أيضاً بأنه يشمل مجموعة تنظيمات لمناطق وأراضٍ وجنان تجتمع فيها أرواح الأموات مع أرواح أقربائهم أو مع أرواح الناس المساوين لهم اجتماعياً في مرتبات ومكانات خاصة. ونادراً ما يكون هناك تقسيم بالنسبة إلى التصرف الأخلاقي، وعند وجود هذا التقسيم فإنه يعتمد بالدرجة الأولى على ثروة وقابلية الشخص لعمل الاحتفالات وكذلك الشجاعة في الحرب أكثر من كون الشخص طيباً في معاملاته اليومية.

إن الاعتقاد باستمرار الروح بعد الوفاة له أثره في تكوين عبادة الأسلاف وهو شيء مألوف في الصين وبولونيزيا وإفريقيا. إذ يعتقد بأن أرواح الأجداد لا تبقى في العدم، بل تراقب ما يفعله أبناؤهم، وكذلك يستشيرون الأرواح في مشاكلهم اليومية، ويعتقدون بأن الأرواح تزورهم عن طريق تقمص أشخاص، أو واسطة أخرى.

لنأخذ بالحسبان اثنين من المجتمعات في هذا المجال: الأيلا في جنوب شرقي إفريقيا، والتيكوبيا في بولونيزيا. يؤمن الأيلا بتناسخ الإنسان في الحيوانات، وعلى هذا الأساس فإن الأموات من قبيلة الأسد يتحولون إلى أسود بعد الموت ويطاردون أصدقاءهم لمجرد رؤيتهم يركضون، والرجل المطارد إذا توقف ونادى الأسد باسمه البشري فإن الأسد يستدير برأسه ويتركه. ويؤمن التيكوبيون بذلك بصورة تقريبية، حيث يعتقدون أن أرواح الأجداد تتقمص طيراً أو سمكة أو خفاشاً وتظهر نفسها للناس فالمخلوق الذي يتصرف طبيعياً يعتبر حيواناً عادياً، ولكن حينما يتصرف بطريقة خاصة كأن لا يطير عندما يحاول الشخص إزعاجه أو يبقى قريباً من الناس فإنه يعتقد أن روحاً قد تقمصت هذا الحيوان ويجب أن يخاطبه على هذا الأساس.

هناك اعتقاد عام يمكن تسميته «دوجما» *Dogma*، حيث يجوز أن تأخذ روح الإنسان شكلاً حيوانياً. وهنا تظهر بعض الحقائق التي تحتاج إلى شرح كأن يرفض الأسد أن يترك فريسته، أو أن يؤذي الناس الذين يقومون بمطاردته، أو أن ترفض الخفافيش والطيور أن تطير عندما يحاول إخافتها أحد. وهم لا يتصرفون بطريقة ثابتة في حالاتهم الطبيعية ولكنهم يتصرفون تصرفاً غير طبيعي في بعض الأحيان، وهذا التصرف غير الطبيعي يُعلل أساساً ارتباطه بالاعتقاد الديني.

إن تفسير أي حدث خاص ليس هو نفسه من الأشياء الثابتة ولكنه انحدر من المبدأ العام. وقد كان «تايلور» على حق حينما قال إن المعتقدات الخرافية بالأحلام تعطي تفسيراً للأحداث. وهذه المعتقدات الزاخرة بمختلف أنواع المكونات الروحية أو الجوانب المختلفة للفرد، نرى أنها ليست فقط تفاعلاً ذكياً لمسألتين فلسفيتين - طبيعية الأحلام والرؤيا، والفرق بين الحياة والموت. ولكننا نرى تجاوباً معقداً لرغبات مختلفة كالأمل والخوف للفرد وللناس الذين تكون حياتهم إما بواسطة الأرواح والتحول وانتقال الأرواح وتناسخها فإنها تمثل الطرق التي يتصل فيها الأموات

بالأحياء، أو يشارك بها الأموات في الحياة التي تركوها. ومن خلال هذه المعتقدات يتخذ الناس دليلاً لقرارات يجدون من الصعوبة اتخاذها فيما لو لم يوجد هذا الاعتقاد، أو مجرد هروب من الجهل أو الشعور بأننا أدوات يلعب بها الحظ.

وإذ نؤكد بأنه من الممكن معرفة كيف تعمل هذه المعتقدات، فإنه من المستحيل القول، لماذا اتخذت المعتقدات هذا الشكل الخاص؟ «فالأيلا» يؤمنون بتناسخ الأرواح، حيث إن الشخص الميت يرجع إلى الحياة عاجلاً أو آجلاً. وغالباً ما يرجع في الحفيد، وحتى الأشباح تحاول أن تولد ثانية. إن معرفة هوية الطفل بدقة تتم بذكر أسماء أجداده مع بداية فترة الرضاعة من والدته. وفي بداية فترة الرضاعة يعرف الطفل على أساس أنه الروح العائدة للاسم المذكور. أما «التيكوبيون» فإنهم لا يعتقدون بنظرية التناسخ، ويجوز أن يسمّوا الطفل باسم جده المتوفى أو عمه أو أي واحد من أسلافه، ولكنهم لا يعتقدون أن الطفل هو نفسه المتوفى. وهم يعتقدون بوجود علاقة قريبة بين الشخص الحي وبين روح الميت الذي يتوسل إليه ليحميه بفضل كونه يحمل الاسم نفسه. ويسمّى الطفل وروح الميت أسماء (مربوطة)، وفي بعض الحالات تظهر الروح نفسها في جسد الطفل أو تختار واسطة أخرى.

وكما في أشباح «الأيلا» فإن أشباح «التيكوبيين» يُعتقد بأنها متلهفة للظهور بالأجساد، ولو أنهم يعتقدون بأنها تحاول أن تولد من جديد، ولكنها تظهر لمجرد رغبتها في الأكل والشرب والحديث. وحينما تظهر هذه الروح فإنها تبقى فترة قصيرة ثم تذهب، أي أنها سكن مؤقت وليس تناسخاً. ولكن تصرفات الأيلا والتيكوبيين وإيمانهم توحي بعاطفة وإعجاب بالأقرباء الميتين، واستعمال هذه العاطفة يَصْبَغُ شخصيات الأفراد الأحياء وإعطاءهم مُثُـلاً يتصرفون على ضوئها. إن معرفتنا المحدودة تقف دون الإلمام بكيفية وجود مثل هذه المعتقدات في مثل هذه المجتمعات.

إن المخلوقات الروحانية غير البشرية في الأصل تشمل مخلوقات كثيرة، كالأرواح المتوحشة وروح البحر والحوريات والجنيات التي لا يوجد اسم خاص للروح فيها ولكنها تعتبر جزءاً من مجموع. وهناك أرواح العمالقة المخيفة، وهناك أرواح حارسة وظيفتها حماية البشر. وفي بعض المجتمعات فإن تحويل حالات طبيعية إلى أشخاص تلعب دوراً كبيراً في المعتقد الديني. ويعتبر قسم من هذه المخلوقات الروحية

خالقة نفسها، ونظراً لأهميتها بالنسبة للجوانب الدينية فإنها تعطي أحياناً اسم الرب، ومثل هذا الرب يعتبر خلاّقاً ويحكم عالماً روحياً كما في تصورات الهنود الأمريكيين.

يمثل كل من هذه المخلوقات الروحية جانباً من العواطف المعقدة وجملة من المشاكل العملية في حياة الناس الذين يؤمنون بها. فالحوريات والأرواح في الغابات تعطي تعبيراً عن الجانب الخيالي في نفسية الإنسان وتعطي تفسيراً للحظ الجيد أو السيئ للأوهام والخيالات الناتجة عن التعب والظلام في الغابة. وهذه الاعتقادات تمثل تفسيراً معقولاً لأناس قليلي الثقافة والعلم وبعيدين عن الروح العلمية التي توجد في المجتمعات الأوروبية. وترتبط المخلوقات الروحية الأخرى بمشاعر أعمق ومشاكل أكثر تعقيداً. فالروح الحارسة للهنود الأمريكيين تحمي الشخص وتدله إلى الطريق لاقتناء ثروة وتبوؤ مركز اجتماعي مهم، وكثيراً ما تظهر للشخص بعد بحث طويل وإخلاص عميق فمن جانبه كذلك فإن تمثيل الحالات الطبيعية في أشخاص ليست وليدة خيال شعري خرافي، ولكنها مثلت في محاولات لسيطرة الإنسان على محيطه لتحقيق رغباته الاجتماعية والاقتصادية. إن آلهة الماوري تهتم بالأعمال كل حسب اختصاصها، فإله البحر يهتم للصيد والبحار، وإله الغابات يهتم لبناء القوارب، وإله الزراعة لنجاح الزراعة والحصاد.

إن الروح الخلاقة تعطي تفسيراً جيداً لأصل العالم والإنسان، وكذلك تعين الطبقات الاجتماعية التي ينتمي إليها البشر والصلاحيات والمميزات لكل طبقة. إن مركز بعض من هذه الآلهة ليس من السهل تعريفه ولا يُعرّفه الدور الذي يلعبه كل من هؤلاء الآلهة في حياة الأفراد. فالبايامي والدارمولوم في أستراليا، وايو في بولونيزيا الشرقية، وليزا عند الأيلا، وجنوب شرقي البانتو، ومبوري عند الزاندي يعتبرون كلهم آلهة عليا لها سلطات أوسع وأعلى من السلطات الاعتيادية، وهذا يعني اعترافاً ضمنياً بوجود قيمة أعلى في هذا الكون. إن موقف هؤلاء ليس واضحاً إلى حد الآن لكونهم قد صُنفوا مع الآلهة العليا وهذا التصنيف لا يخلو بطبيعة الحال من تحيز.

إن البدائيين غير معنيين في عبادة إله واحد، ولا توجد عندهم عبادة فردية منتظمة. إن الأفكار البدائية حول وجود مخلوقات روحية لا توجد في تعبيرات ثابتة

ولكن في القصص الخرافية الموجودة عندهم. وهذه الأحاديث الخرافية لا تُحفظ فقط لكونها درامية ولطيفة ولكنها تعطي أرضاً صلبة للديانة تستند إليها وكذلك للاحتفالات التي تقام من أجل المعتقد الديني. وهذه الأحاديث هي خشوع للماضي لتبرير كثير من التصرفات في الوقت الحاضر. إن فكرة وجود المخلوقات الروحية وعلاقتها بأعمال الإنسان تشمل أفكاراً عن قوى ما فوق الطبيعة. وهذه الأفكار تختلف من مجتمع إلى آخر ولكنها في الأغلب تشمل اعتقاداً بنوعية القدسية والتحريم وكذلك بمبدأ الكفاءة أكثر من الطبيعي، كما في معتقد «المانا» ***Mana*** في المحيط وكذلك في «واكان» ***Wakan*** و«أورندا» ***Orenda*** في شمال أمريكا. لا يمكن تفسير الدين على أساس أنه اعتقادات فحسب، لأن الإيمان البشري لا يتم في الفراغ، ولكنه يطبق على نتائج يقصد منها أن تكون ناجحة لتلائم رغبات الإنسان. فالمعتقد يجب أن يترجم إلى طقس، والإيمان إلى عمل. وكما قال «ماريت» ***R. Marett***: «إن الديانة البدائية ترقص أكثر مما تعبد». ويمثل الرقص جانب الطقوس الدينية، وإن الدافع الأساسي لوجود هذه الطقوس هو الرغبة في الحماية الفردية وتبوؤ مراكز اجتماعية، وحماية الأهل من الأمراض. وهكذا، وكما في السحر فالطقوس هي عبارة عن رابطة لجلب الإيمان والرغبة على حدّ سواء، أي لمقاربتهما. والطقوس هي الجسر بين الإيمان والعمل، ويمكننا تحديد ثلاثة أنواع من مجموع الطقوس الدينية البدائية هي: عبادة الأرباب، دفن الموتى، واحتفالات تمجيد الأسلاف.

إن معنى عبادة الله عند الأوروبيين هو الركوع لله والخشوع له، شاكرين له فضله ومعترفين بقوته وكرمه ورعايته. وهذا الموقف قد غطى، كما في المجتمع البدائي، كون العبادة لها أساسها العملي، وهي تسجل اعتقاداً بقوىً فوق الطبيعة، والموقف الذي يتخذه المتعبد من هذه القوى. وتشمل الخشوع كما في الصلاة والتضحيات، والهدايا كما في عيد الشكر. ويشمل العطاء جزءاً من التضحية، والجزء الآخر مجرد شعور قلبي صادق. ولكن دراسة الموقف توضح لنا رغبة بشرية بأن العطاء يجب أن يرجع بشيء يقابله أو أثمن منه. ويجوز أن يتذلل المتعبد أمام ربه ولكنه في صلاته يتحدث بكلمات كلها طلبات. وحينما يهب الشخص العطايا

فإنها ليست مجرد شكر على خدمات سابقة، بل يتوقع استمراريتها، وأن وضع أول ثمار الحصاد أمام الرب لا يعني الشكر فحسب ولكن دوام الحصاد القادم.

إن لكل مجتمع طقوس دفن خاصة. فحينما يموت شخص فإن أقرب الأقرباء يجتمعون حوله وينوحون، وبعد ذلك يرتبون أمور الدفن للتخلص من الجثة. والتجمع ليس وفق الاختيار، ولكنه يُملى عليهم بواسطة ارتباطات قانونية. والنواح لا يتم كيفما يشاء النائح، فعليه ترديد عبارات ثابتة ومنظمة، ودرجة نواحه تعتمد على درجة قرابته من المتوفى، وغالباً ما ينال من الهدايا المادية اعترافاً بقيامه بالنواح بصورة جيدة. ويجوز أن يظن الإنسان أن مراسم الدفن تهتم بمصير الروح بعد الوفاة، وكذلك لتساعده على تمتعه بصحة جيدة ومركز مرموق في الحياة الثانية. وكثيراً ما تكون هذه الناحية مغفلة عن بال المشيعين، كما يجوز أن يدور حديث قليل عن مصير الروح، وتقام مراسم قليلة عن مردودها السليم والحفاظ عليها. وأكثر الوقت يضيع في تبادل الهدايا والترتيبات المقبلة لوضع أفراد عائلته، وهذا تأكيد للرأي القائل إن المراسم تهتم بالأحياء أكثر من الأموات. وكما يشير «رادكليف براون» إلى أنه إذا مات شخص في جزر أندمان فإنه يترك وراءه فجوة اجتماعية ويثير عواطف الناس الأحياء. وتمثل المراسم الجنائزية متنفساً عن هذا الشعور، وتؤكد الدور الذي لعبه الشخص في حياته. فللمراسم عمل مهم وهو التأكيد على الأهمية الاجتماعية للفرد، وكذلك تساعد على التجديد والسيطرة على الفجوة الاجتماعية التي تركها الفرد بموته.

تختلف احتفالات تمجيد الأسلاف عن عبادة الأرباب وعن احتفالات الجنائز، وهي أكثر حدة في طبيعتها. ففي أستراليا فإن المرتع الخصب لهذه الاحتفالات هو الحياة الاجتماعية للناس. فتمجيد الأسلاف هو احتفالات تخص نظرية علاقة العالم الطبيعي بالعالم الاقتصادي، فهي تقدم سلسلة من التفسيرات عن المحيط الطبيعي، وطريقة منظمة عن علاقة هذه العوامل بالإنسان. وهي تكوّن نظرية عن الأصل وطريقة عن استعمال الأنواع الطبيعية، وتبنّي مبدأ لتنظيم العلاقة بين الناس. والمراسم التي يشملها تمجيد الأسلاف معقدة، وهناك اختلاف كبير في تطبيق القبائل لهذه المراسم. وحينما تأخذ شكلاً معيناً من الاحتفالات فهناك عنصران

رئيسيان يبرزان في المراسم: أحدهما هو التذكر الجماعي والتعداد الجماعي للأعمال البطولية الماضية التي قام بها أفراد سابقون. وتكون هذه المراسم مثيرة وملونة وتمثل الأحداث الأصلية التي تمت في السفر والصراع والحياة والموت وتحول الإنسان إلى حيوان، حيث يعتقدون أنها حدثت حين بدء الخليقة. والعنصر الآخر الذي يبرز غالباً ما يكون مشتركاً مع الأول ويسمى «تالو» *Talu* أو بالأحرى يسمى «إنتيشيوما» *Intichiuma* وهو اسم الاحتفال الذي تقوم به قبيلة «أرونتا». ويجوز أن يشمل هذان الاحتفالان على عرض أشياء مقدسة ترمز إلى الأعمال التي قام بها الأسلاف.

إن ما كتب عن تمجيد الأعمال البطولية يرجع مرده إلى كتابات «ماكلينان» *Mclennan* ومقالات «جيمس فريزر» *J. Frazer* القديمة، وإلى التحليلات الحديثة التي قدمها «رادكليف براون» *A.Radcliffe-Brown*، حيث توجد عدة نظريات حول منشأ وعمل التمجيد. وتصنف في بعض الأحيان على أساس كونها حالة سحرية، وأحياناً دينية. إن عناصر من الاثنين تظهر فيها. فاحتفالات التمجيد تعطي من جهة نظاماً ودافعاً للأشخاص للإفادة العملية من المحيط، ومن الجهة الأخرى تعطي فرصة للاجتماعات وتوزيع الميزات الاجتماعية، وتترجم الخرافات إلى واقع عملي. وعلى العموم فهي ترمز وتؤكد بعض القيم الأساسية في الاقتصاد والحياة الاجتماعية للبدائيين الأستراليين.

إن هذا البحث المختصر عن السحر والدين قد أشار إلى أهم المشاكل العلمية ودورها في حياة الإنسان، وما تبين أنه ذو علاقة وثيقة بنواح أخرى من الثقافة البشرية والاقتصاد والتكنولوجيا، وإلى ما يمثل الأدب البدائي، وكذلك هي ذات علاقة بعواطف بشرية أساسية وذات اتصال بطبيعة شخصية الفرد ووجوده، وما تمثله هذه المعتقدات التي تسمى غير راشدة تعطي قوة للكثير من التصرفات الحميدة، وتجهز جملة من المثل التي يستند إليها التصرف، وتحدد نقطة انطلاق لآراء الإنسان في الحياة والكون، ولعلاقاته مع أقرانه، وللأمل في المستقبل. كل هذا يقدم تفسيراً لما تعنيه هذه المعتقدات حتى ولو ثبت عدم جديتها[1].

---

[1] الأنماط البشرية «مدخل لدراسة علم الإنسان الاجتماعي»، تأليف: رايموند فيرث، ترجمه وقدم له: د. صبحي قنوص، منشورات جامعة قاريونس - بنغازي، ط1، 1989، ص 115- 140.